زعيم اليمامة يحاول اغتيال النبي ﷺ

اسمه (ثمامة بن أثال الحنفي) سيد اليمامة وبني حنيفة.. يعلنها صريحة للنبي ﷺ: «ما وجه أبغض إلي من وجهك، ولا دين أبغض إلي من دينك، ولا بلد أبغض إلي من بلدك»[1]

لم يقنع ثمامة بتلك المشاعر فقط، بل حاول تجسيدها على أرض الواقع.. حاول أن يشفي غليله وغليل قريش والأصنام بسفح دماء النبي ﷺ، لكن محاولته فشلت، فدعا النبي ﷺ ربه أن يمكنه منه.

يقول أبو هريرة رضي الله عنه: «إن رسول الله ﷺ دعا الله حين عرض لرسول الله ﷺ بما عرض له، أن يمكنه الله منه، وكان عرض له وهو مشرك، فأراد قتله»[2] لكنه خاب، أما النبي ﷺ فكان كعادته لا يكتفي بالدعاء فقط دون الأفعال، فالتوكل عنده هو القيام بالعمل بطريقة صحيحة، مع جعل النتائج كلها على الله لا على العمل، وهذا بالضبط ما قام به للإمساك بهذا المشرك، الذي ملأ الحقد قلبه فأعماه عن رؤية شمس التوحيد ونهاره، ويبدو أنه كان مدفوعاً بمفكر اليمامة ومنظرها (مسيلمة الكذاب) الذي بدأ يستعد لإعلان نفسه نبياً، وند للنبي ﷺ، في الوقت الذي كان ﷺ يعد جيشاً ذكياً لـ:

غزو نجد

ويبدو أن هذه الغزوة مرت بمرحلتين:

الأولى: مواجهة جماعية غنم فيها المسلمون الكثير، حيث يقول عبد الله بن عمر ابن الخطاب رضي الله عنهما «بعث النبي ﷺ سرية وأنا فيهم قبل نجد، فغنموا إبلاً كثيرة، فكانت سهماننا اثنا عشر بعيراً، أو أحد عشر بعيراً، ونفلوا بعيراً بعيراً»[3]

أما المرحلة الأخرى: فتتلخص في القبض على سيد أهل اليمامة (ثمامة بن أثال الحنفي) الذي يستعد الآن للانطلاق من بلاده.. متوجهاً نحو مكة لأداء العمرة، ليفاجأ بقوة عسكرية تأسره، وتأخذه معها إلى المدينة.

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي في الدلائل ٤-٧٩: حدثني سعيد المقبري عن أبي هريرة وسعيد بن أبي سعيد تابعي ثقة من رجال الشيخين: التقريب ٢٣٦.

(٢) سنده صحيح رواه ابن إسحاق وهو جزء من الحديث السابق.

(٣) حديث صحيح رواه مسلم ٣-١٣٦٨.

قصة مثيــرة تحمل حِكماً وأحكاماً عندما «بعث رســول الله ﷺ خيلاً قبل نجد، فجــاءت برجل من بني حنيفة يقال له (ثمامة بن أثال) ســيد أهــل اليمامة، فربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه رسول الله ﷺ فقال: ماذا عندك يا ثمامة؟

فقال: عندي يا محمد خير، إن تقتل تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شــاكر، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت. فتركه رسول الله ﷺ حتى كان بعد الغد، فقال: ما عندك يا ثمامة؟

قال: ما قلت لك.. إن تنعم، تنعم على شاكر، وإن تقتل، تقتل ذا دم، وإن كنت تريد المال فسل تعط ما شئت.

فتركه رسول الله ﷺ حتى كان من الغد، فقال: ماذا عندك يا ثمامة؟ فقال: عندي ما قلت لك.. إن تنعم، تنعم على شاكر، وإن تقتل، تقتل ذا دم، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت»[1].

كان أبو هريرة ومن معه من المساكين يستمعون إلى هذا الحوار، ويتمنون لو ينتهي الأمر إلى شيء يفرحهم ويدخل السرور والفسحة على حياة الفاقة التي يمرون بها في صفتهم تلك.

يقول رضي الله عنه «فجعلنا -المســاكين- نقول -بيننــا-: ما يصنع بدم ثمامة؟! والله لأكلة من جزور سمينة من فدائه أحب إلينا من دم ثمامة»[2]

أما النبي ﷺ، فيرى أن الدنيا بحذافيرها لا تســاوي شــيئاً أمام هداية رجل أو امرأة، فكيف بســيد اليمامة هذا. أقبل رسول الله ﷺ على أسيره فقال: «عفوت عنك يــا ثمامة»[3] «أطلقوا ثمامة. فانطلق إلى نخل قريب من المســجد، فاغتســل ثم دخل المسجد فقال:

أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

يا محمد والله ما كان على الأرض وجه أبغض إلي من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه كلها إلي.

---

(١) حديث صحيح سيأتي تخريجه بعد الحديث التالي.

(٢) حديث صحيح سيأتي تخريجه بعد الحديث التالي.

(٣) حديث صحيح سيأتي تخريجه بعد الحديث التالي.

والله ما كان من دين أبغض إلي من دينك، فأصبح دينك أحب الدين كله إلي.

والله ما كان من بلد أبغض إلي من بلدك، فأصبح بلدك أحب البلاد كلها إلي. وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة، فماذا ترى؟

فبشره رسول الله ﷺ، وأمره أن يعتمر»[1] «فيسره رسول الله ﷺ في عمرته، وعلمه، فخرج معتمراً»[2] بعد أن اعترف بذنبه واستحقاقه لعقوبة القتل.. أطلق النبي ﷺ ثمامة من أسره، ليقع في أسر آخر.. أسر الحب.. حب الله ورسوله ودينه وحتى أرضه وبلاده.

رافع الطائي وثمامة الحنفي وبنو المصطلق، وكثير من البشر.. قد لا يتأثرون بكثرة صلاة المسلم أو صيامه، ولا بشكل لحيته وطول ثوبه، بل قد يرونها - قبل أن يسلموا- نوعاً من تعذيب الذات من أجل الخلاص.. هذه النوعية من البشر لا تأبه بالعبادات قبل هدايتها.. هي منساقة خلف خلق جميل، وتعامل راق.. مأخوذة بالدين المعاملة، لا بالدين العبادة، وهي نوعية لا تجد أفضل من محمد ﷺ للتعامل معها.. لا تجد أفضل من محمد يتهادى خلف كلمات ربه التي تقول: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾[3] ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾[4]

تعامل ﷺ بهذا المستوى مع ثمامة فحقق قول الله سبحانه: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾[5] وقد حولت الأخلاق ثمامة إلى ولي حميم، بعد أن كان عدواً مبغضاً.

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم ٣-١٣٨٦.

(٢) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي في الدلائل ٤-٨٠ حدثني سعيد المقبري عن أبي هريرة وأخبرني سعيد عن أبي عن أبي هريرة وقد مر معنا.

(٣) سورة آل عمران: آية ١٥٩.

(٤) سورة النحل: ١٢٥.

(٥) سورة فصلت: ٣٤

ودع ثمامة نبيه ﷺ وأحبابه الجدد متجهاً إلى مكة بقلب آخر، وشخصية أخرى، وأهداف أرقى وأسمى، وكأنه اغتسل بنهر حياة جديدة، وتوجه نحو مكة بعد أن «اغتسل وصلى ركعتين، فقال النبي ﷺ: « لقد حسن إسلام أخيكم»[1]

سار ثمامة نحو عمرته بقلب آخر «فلما قدم مكة قال له قائل:

أصبوت؟ فقال: لا، ولكني أسلمت مع رسول الله ﷺ»[2]

عندها استفزه بعض الحمقى من المشركين، واحتج على إسلامه، فانتفض سيد اليمامة على سدنة الأصنام مهددا إياهم كما هددهم سعد بن معاذ رحمه الله قبل غزوة بدر.. صرخ فيهم ثمامة وعزة الإيمان تملؤه: «ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ»[3] قالها فكان:

أول من سن المقاطعة الاقتصادية

سيد بني حنيفة يحاصر مكة اقتصاديا، غضباً لله ورسوله، ودفاعاً عن الظلم الذي لحق بأصحاب نبيه، فقال لقريش: «وأيم الذي نفس ثمامة بيده لا تأتيكم حبة من اليمامة -وكانت ريف مكة- ما بقيت حتى يأذن فيها محمد ﷺ، وانصرف إلى بلده ومنع الحمل إلى مكة حتى جهدت قريش»[4]

علم النبي ﷺ بذلك فأقره ولم يعترض، فكانت سنة نبوية، وسلاحاً فعالا في وجه الظلمة والمتسلطين.. وافقه ولم يقل له: مهلا يا ثمامة فإن في مكة أناس ممن يخفون إسلامهم.. لم يقل: ما ذنب عمي العباس وعمتي عاتكة.أما ثمامة العظيم فـ«رجع فحال بين أهل مكة وبين الميرة من اليمامة حتى أكلت قريش العلهز»[5] أي الدماء.

---

(١) سنده قوي رواه عبد الرزاق ٦-٩ أخبرنا عبيد الله وعبد الله ابنا عمر عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة، سعيد تابعي ثقة معروف التقريب ١-٢٩٧ وتلميذاه أحدهما ضعيف وهو عبد الله لكن أخاه ثقة ثبت من رجال الشيخين: التقريب ١-٥٣٧.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم ٣-١٣٨٦.

(٣) حديث صحيح رواه مسلم ٣-١٣٨٦.

(٤) حديث صحيح رواه مسلم ٣-١٣٨٦.

(٥) سنده قوي كما قال الحافظ رحمه الله في الإصابة ١-٤١١ وعزاه لابن منده من طريق علباء بن أحمر ووجدته في دلائل البيهقي ٤-٨١ من طريق علباء عن التابعي الثقة عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما وعلباء صدوق من رجال مسلم: التقريب ٣٩٧

(ادفع بالتي هي أحسن) كلمات قليلة حولت أرض اليمامة إلى ربيع في قلب النبي ﷺ وسيف في يده، أما قريش فـ:

قريش تأكل الدم
بسبب حصار اليمامة الاقتصادي

بعد أن دعا النبي ﷺ عليها، فكان ثمامة استجابة الدعاء، وعندما أشرفت قريش على الهلاك انطلق زعيمها أبو سفيان كارهاً.. مستغيثاً بالمدينة.. باحثاً عن مخرج لأزماته المتسارعة والثقيلة مستغلاً قرابته ومصاهرته للنبي ﷺ علها تنقذه مما هو فيه.

أبو سفيان في المدينة

يطلب الرحمة من هذا الحصار ويستغيث وقد علم عبد الله بن مسعود بمجيئه فقال: «إن قريشاً أبطؤوا عن الإسلام فدعا عليهم النبي ﷺ فقال: اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف. فأخذتهم سِنة حتى هلكوا فيها، وأكلوا الميتة والعظام، ويرى الرجل ما بين السماء والأرض كهيئة الدخان. فجاءه أبو سفيان فقال: يا محمد جئت تأمرنا بصلة الرحم، وإن قومك قد هلكوا فادع الله فقرأ ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴾»[1]

استمر الوضع على ما هو عليه «حتى جهدت قريش فكتبوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه بأرحامهم، أن يكتب إلى ثمامة يخلي حمل الطعام، ففعل رسول الله ﷺ»[2] وعفا عنهم.

لكن قريشاً لم تنتفع بذلك العفو ولم تتعظ.. لم تستوعب الدرس جيداً، فقد فقدت مبررات البقاء على جاهليتها ووثنيتها، ولم يبق لها سوى العناد.. العناد آخر

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٧٩١.

(٢) حديث صحيح وهو آخر حديث ابن إسحاق السابق.

أســـوار قريش التي بقيت لها، لكن العناد تحول إلى قشـــرة خفيفة تســـتر بها فضيحة الشرك وعيوبه.

كانت الجزيرة العربية وما حولها تترقب نهاية حاســـمة وقريبة، فلم يبق في صف قريـــش إلا حلفاء الأصنام.. الذين وقعوا معها حلفاً بعد صلح الحديبية وهم (بنو بكر) لكن يبدو أن الظروف لا تســـاعد قريشاً كثيراً، فحتى هؤلاء الحلفاء لم تعد لهم أهمية تذكـــر. فقـــد تحولوا إلى فخ يدني قريشـــاً كل يوم من حتفها. حتى جـــاءت تلك الليلة المشؤومة على قريش، و على حليفتها بكر.. عندما قررتا الانتحار عند نبع الوتير.

ليلة المؤامرة على خزاعة عند نبع الوتير

في ساعة كالغدر اتفق الطرفان قريش وبنو بكر على استغلال الليل، للغدر بالقبيلة التي حالفها المسلمون عند توقيع صلح الحديبية، وهي قبيلة (خزاعة) ومباغتتها. وقد خطط طرفا المؤامرة لتتم العملية بسرية لا يعلمها النبي ﷺ ولا حتى خزاعة، وبسرعة خاطفة وكأنها من بقايا السلب والنهب الجاهلي.

يقول أحد الصحابة «كان في صلح رسول الله ﷺ يوم الحديبية بينه وبين قريش: أنه من شاء أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل، ومن شاء أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل. فتواثبت خزاعة فقالـــوا: نحن ندخل في عقد محمد وعهده. وتواثبت (بنو بكر) فقالوا: نحن ندخل في عقد قريش وعهدهم.

فمكثوا في تلك الهدنة نحو الســـبعة أو الثمانية عشر شهراً، ثم إن بني بكر الذين كانوا دخلوا في عقد قريش وعهدهم.. وثبوا على خزاعة الذين دخلوا في عقد رسول الله ﷺ وعهده ليلاً، بماء لهم يقال له (الوتير) قريب من مكة.

فقالت قريش: ما يعلم بنا محمد، وهذا الليل وما يرانا أحد. فأعانوهم عليهم بالكراع والسلاح، فقاتلوهم معهم للضغن على رسول الله ﷺ»[1] والنيل منه ولو معنوياً.

---

(١) ســـنده صحيح رواه ابن إســـحاق ومـــن طريقه البيهقي في الكبرى ٩-٢٣٣ حدثـــي الزهري عن عروة بن الزبير عن مروان بن الحكم والمســـور بن مخرمة أنهما حدثاه جميعاً وهذا الســـند هو ســـند البخاري في روايته لأول القصة.

لكـن ذلك الليل لم يسـتطع طمس بعـض وجوه المجرمين الذيـن مزقوا معاهدة الحديبيـة.. تلـك المعاهدة التي تطرفـوا في شـروطها، وأملوا ما شـاءوا من ظلم، وتغطرسـوا، ومع كل هذا لم يلتزموا بها.. لم يستطع الظلام إخفاء تلك الجريمة، فقد تمكن بعض رجال خزاعة من التعرف على بعض المجرمين، فأمرت خزاعة أحد رجالها واسـمه: عمرو بن سالم كي ينطلق نحو المدينة لطلب النجدة من النبي ﷺ، ففعل. ولما وقف أمام النبي ﷺ انطلق الشعر من أعماقه جمراً ومراراة واستغاثة.

الشعر يستغيث النصر لخزاعة

يقول أحد الصحابة « أن عمرو بن سالم ركب إلى رسول الله، عندما كان من أمر خزاعة وبني بكر بالوتير، حتى قدم المدينة إلى رسـول الله ﷺ يخبره الخبر، وقد قال أبيات شعر، فلما قدم على رسول الله ﷺ أنشده إياها:

اللـهـم إنـي نـاشـد مـحـمـداً ... حـلـف أبـيـنـا وأبـيـه الأتـلـدا
كـنـا والـــدا وكـنـت ولـدا ... ثـمـت أسـلـمـنـا ولـم نـنـزع يـدا
فـانـصـر رسـول الـلـه نـصـراً عـتـدا ... وادعـــوا عـبـاد الـلـه يـأتـوا مـددا
فـيـهـم رســول الـلـه قـد تجـردا ... إن سـيـم خـسـفـاً وجـهـه تـربـدا
فـي فـيـلـق كـالـبـحـر يـجـري مـزبـدا ... إن قـريـش أخـلـفـوك الـمـوعـدا
ونـقـضـوا مـيـثـاقـك الـمـؤكـدا ... وزعـمـوا أن لـسـت أدعـو أحـدا
فـهـم أذل وأقـــل عـــددا ... قـد جـعـلـوا لـي بـكـداء مـرصـدا
هـم بـيـتـونـا بـالـوتـيـر هـجـدا ... فـقـتـلـونـا ركـعـاً وسـجـدا

فقال رسول الله ﷺ: نصرت يا عمرو بن سالم.

فما برح حتى مرت عنانة في السـماء، فقال رسـول الله ﷺ: إن هذه السـحابة لتسـتهل بنصر بني كعب. وأمر رسول الله ﷺ الناس بالجهاز، وكتمهم مخرجه، وسأل الله أن يعمي عليهم قريش خبره حتى يبغتهم في بلادهم»[1] فهذه الجريمة لن تمر دون

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي في الكبرى ٩-٢٣٣ حدثني الزهري عن عروة بن الزبير عن مروان بن الحكم والمسـور بن مخرمة أنهما حدثاه جميعاً قالا.. وهذا السند صحيح مر الحديث عنه عند صلح الحديبية، وهو سند البخاري في روايته لصلح الحديبية. والزهري وعروة تابعيان إمامان ثقتان ثبتان من أشهر الأئمة.

عقـــاب رادع يوقف قريش ومن معها عند حدهم، فلقد تمادت كثيراً، وكثيرا جداً، ولن يوقفهم عن تهورهم إلا إجراء بالغ الصرامة.. لن يوقف تآمرهم وكفرهم إلا:

فتح مكة

فهذا النوع من البشـــر يســـتنفذ منك كل طاقات الإقناع والسلام، والعفو والحلم والحكمة، بل إنه ينظر إلى هذه الألوان الســـلوكية الإســـلامية الرائعة على أنها ضرب من ضروب الســـذاجة، والسطحية والغباء تستحق الانتهازية والاستغلال والمماطلة ما أمكن، هذا النوع من البشـــر لا يخضع للحق رغم ســـطوعه كالشمس في عينيه، لكنه يسرع إليه إذا رأى شعاع الشمس منعكساً على شفرة سيف حاد.

ولأهمية هذا الأمر لم يعلن النبي ﷺ لأصحابه كيف سيكون الرد، ولا متى.. حتى أهل بيته.. حتى أبو بكر وبقية الصحابة.

لا أحد يعلم هدف هذا الاستعداد ولا وجهته، فقد دخل أبو بكر الصديق على ابنته «عائشة وهي تغربل حنطة لها، فقال: ما هذا؟ أمركم رسول الله ﷺ بالجهاز؟ فقالت: نعم، فتجهز. فقال: وإلى أين؟ قالت: ما سمى لنا شيئاً، غير أنه قد أمرنا بالجهاز»[1]

ثم صـــدرت أوامر النبي ﷺ للمهاجرين والأنصار جميعاً بالتأهب، فامتثلوا، وبعث ﷺ إلـــى قياداتـــه من بني ســـليم ومزينة، فتطوع من بني ســـليم حوالي الســـبعمائة، أما مزينة فتجـــاوزوا هـــذا العدد ليصلوا إلى ألف مقاتل، وتداعت القـــوات من كل مكان في الجزيرة، حتـــى توافر لدى النبي ﷺ قوة ضاربة قوامها عشـــرة آلاف مقاتل.. كل ذلك وهم لا يدرون إلى أين سيتوجه بهم النبي ﷺ.

المدهش في الأمر أن شهر رمضان قد دخل على الأمة، فلم يتزحزح النبي ﷺ عن قراره بغزو مكة وتخليصها.

يقول أحد الصحابة عن عدد القوات المتوافرة: «مضى رســـول الله ﷺ وأصحابه عام الفتح حتى نزل مر الظهران في عشـــرة آلاف من المسلمين، فسبعت سليم، وألفت

---

(١) ســـنده صحيح رواه ابن إســـحاق ومن طريقه البيهقي في الدلائل ٥-١٢ حدثنا محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير عن عائشة فجعفر ثقة وعروة إمام ثقة مر معنا كثيراً.

مزينة، وفي كل القبائل عدد وإسلام، وأوعب مع رسول الله ﷺ المهاجرون والأنصار، فلم يتخلف عنه منهم أحد، وقد عميت الأخبار على قريش، فلا يأتيهم خبر رسول الله ﷺ ولا يدرون ما هو صانع»[1] وهو مؤشر على مدى السرية التي أحاط بها النبي ﷺ هدف كل هذا الاستعداد الضخم.. الذي لم تشهد له الجزيرة العربية مثيلاً، ولا أستبعد أن يكون كبار الصحابة يرجحون أن مكة هي الهدف القادم، لكنهم لا يستطيعون البوح بذلك، لأن التلفظ به يعني مزيداً من البلبلة والإشاعات والإرجاف، وإعطاء العدو فرصة للتأهب، وهم يعلمون أن النبي ﷺ لا يريد ذلك كله.

لكن أحد أفاضل الصحابة من المهاجرين، وأحد رجال بدر العظماء قام بعمل خطير جداً.. لا يقوم به إلا منافق، أو عدو لهذه الدولة. لقد كان هذا الصحابي الجليل لماحاً، ففهم من هذه الجموع والترتيبات أن النبي ﷺ لا يمكن أن يقصد بها قبيلة ضعيفة، أو غزوة عادية في الجزيرة، فقد انتصر على كل القبائل التي واجهها بسرايا محدودة العدد.. محدودة التجهيز، لكن الأمر اليوم يحمل خلف صمت الهدف ضربة حاسمة.. ستغير وجه الجزيرة وأعماق من يسكنها، فلا يمكن أن تكون إلا أعظم قبيلة على أرض الجزيرة، ولا يمكن أن تكون إلا أقدس أرض على سطح الأرض، وهذا ما جعل انتقام قريش من ذوي المسلمين الضعفاء متوقعاً، وكان أهل حاطب في مكة معرضين لانتقام طواغيت قريش في حالة مداهمتهم، وربما يستغلونهم كرهائن في حالة الانكسار، وأشياء عديدة وثقيلة، كالهموم تغرز حرابها في رأس حاطب. لكن حاطباً يعلم من هذه الجموع، ومن معنويات قريش أن النصر محسوم للإسلام وأهله، فلن يضرهم أن يتصرف بطريقة تحمي أهله، وهو يجزم أنها لن تعيق انتصار النبي ﷺ:

حاطب ينذر قريشاً معركة فاصلة

فقد كتب خطاباً «فيه من حاطب بن أبي بلتعة، إلى أناس من المشركين من أهل مكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ»[2] ثم تسلل رضي الله عنه إلى مكان إحدى

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه الحاكم ٣-٤٦ حدثني الزهري عن عبيد الله ابن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس.الزهري وشيخه ثقات أثبات التقريب ٣٧٣ و٥٠٦

(٢) حديث صحيح رواه البخاري ٣-١٠٩٥.

النساء المسافرات إلى مكة، أو أرسلها هو بذلك الخطاب، لكن ومن باب السرية أيضاً أمرها أن تخفي كتابه بضفائر شعرها، لكن جبريلاً عليه السلام نزل يخبر النبي ﷺ بصنيع حاطب، فاستدعى علي بن أبي طالب والزبير بن العوام والمقداد بن الأسود رضي الله عنهم فجاءوا.

هاهو علي سوف يخبرنا بما حدث.. يقول رضي الله عنه: «بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد، فقال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة[1] معها كتاب فخذوه منها.

فذهبنا تعادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة فقلنا: أخرجي الكتاب. فقالت: ما معي من كتاب. فقلنا لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب.

فأخرجته من عقاصها[2] فأتينا به النبي ﷺ، فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين ممن بمكة.. يخبرهم ببعض أمر النبي ﷺ»[3]

أخذ الفرسان الكتاب، ثم عادوا إلى المدينة دون أن يمسوا المرأة بسوء، فهي لا تعلم عما بداخله شيئاً، ولما سلموه إلى النبي ﷺ أمر بقراءته، ثم استدعى حاطباً لمساءلته عن هذا الخطأ الشنيع.. الذي لا يفعله إلا أعداء هذا النبي ودولته وأعداء هذا الدين.

مساءلة حاطب

حاطب الآن بين يدي النبي ﷺ دون قيود.. دون ضرب، أو إهانة أو سجن على ذمة التحقيق، لكن عمر بن الخطاب كان متأهباً بالسيف لفصل رأس حاطب عن جسده، فهو في نظر عمر منافق مرتد، لكن للنبي ﷺ قولاً آخر وحلماً آخر.

خاطب صاحبه بكلمات قليلة.. «قال رسول الله ﷺ: يا حاطب ما هذا؟ قال: يا رسول الله لا تعجل عليّ.. إني كنت امرأ ملصقاً في قريش، كنت حليفاً ولم أكن من

---

(١) الظعينة هي المرأة، ويقال هي المرأة في الهودج.

(٢) شعرها.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٨٥٥.

أنفسها، وكان من معك من المهاجرين من لهم قرابات يحمون أهليهم وأموالهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يداً يحمون قرابتي، ولم أفعله ارتداداً عن ديني، ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام.

فقال رسول الله ﷺ: أما إنه قد صدقكم.

فقال عمر: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق.

فقال: إنه قد شهد بدراً، وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدراً فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم. فأنزل الله السورة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾»[1]

ما قام به حاطب رضي الله عنه خطأ شنيع للغاية، لكنه لم يكن مقروناً بنية فاسدة تحمله معها إلى حيث مراتع الردة وسيف عمر.. كان الدافع خوفاً على الأهل.. كان تصرفاً تمليه حالة ضعف بشرية يمر بها الجميع، ويتجاوزها القليل، ومع ذلك لم تفلح تلك النية السليمة في تمرير ذلك الخطأ، لكن في هذه القصة منهج للدولة الإسلامية والقضاء فيها، وردع لأي حكم بالردة والسيف، أو حتى السجن قبل المساءلة والتثبت واكتشاف الدوافع الحقيقية.

تلك الدوافع التي اكتشف حاطب أنه كان ضعيفاً جداً أمامها، واكتشف أيضاً كم هو مخطئ، وكم هي ثقيلة تلك المسؤولية التي يحملها تجاه أمته وأسرار دولته.

ندم حاطب ندماً شديداً، فوجد النبي ﷺ واحة تقول: «الندم توبة»[2] ووجد الإسلام يحتفظ له برصيد جميل أودعه أيام بدر، وما زال يتنامى، ولا يزال إلى يوم البعث، له ولبقية الصحابة الذين بذلوا كل شيء من أجل هذا الإسلام، ولا يمكن شطب

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٥٥٧.

(٢) حديث صحيح رواه ابن حبان ٢-٣٧٩ وغيره من طريق مالك بن مغول عن منصور عن خيثمة عن بن مسعود عن النبي ﷺ والحاكم ٤-٢٧٢ وغيره عن ابن وهب عن يحيى بن أيوب عن حميد عن أنس مرفوعاً وأحمد ١-٣٧٦ وغيره عن عبد الكريم أخبرني زياد بن أبي مريم عن عبد الله بن معقل عن ابن مسعود عن النبي ﷺ وهذه الأسانيد صحيحة.

ما بذلوه لخطأ، فهم بشر يصيبون ويخطئون، ولو كانوا غير ذلك لما بعث لهم نبي وأنزل عليهم قرآن، فرضي الله عنهم وأرضاهم ما أجملهم وأبهاهم.

أما النبي ﷺ فقد اطمأن إلى عدم وجود أي قناة تتسرب منها أخباره إلى أهل مكة، وزاد من طمأنينة الوضع دخول شهر رمضان بروحانيته وسكينته وجماله، ليضفي كل تلك الأشياء العذبة على أفراد جيشه.. ليغسلوا حماسهم بها، حتى لا يتحول الحماس إلى ثأر أو تهور، وللقوم ثارات لا يجتثها سوى تجذر الإسلام في أعماقهم، ولا يطفئ جحيمها سوى مطر الاحتساب.

ولما جاء اليوم العاشر من رمضان، وكمل احتشاد الجموع.. نادى ﷺ رجلاً من أصحابه اسمه (كلثوم بن عتبة بن خلف الغفاري) ويلقب بأبي رهم، ولما جاء عينه ﷺ أميراً على المدينة حتى يعود:

أبو رهم خليفة رسول الله ﷺ في المدينة

يقول أحد الصحابة «مضى رسول الله ﷺ لسفره، واستخلف على المدينة أبا رهم كلثوم بن حصين بن عتبة بن خلف الغفاري، وخرج لعشر مضين من رمضان، فصام رسول الله ﷺ وصام الناس معه، حتى إذا كان بالكديد (ماء بين عسفان وأمج) أفطر.

ثم مضى حتى نزل بمر الظهران في عشرة آلاف من المسلمين»[1] و«الظهران واد قرب مكة وعنده قرية يقال لها مر تنسب إلى هذا الوادي فيسمونها: مر الظهران»[2]

ويحدد رضي الله عنه العام الذي خرج فيه النبي ﷺ فيقول إنه «خرج في شهر رمضان من المدينة معه عشرة آلاف من المسلمين، وذلك على رأس ثمان سنين ونصف من مقدمه المدينة. فسار بمن معه من المسلمين إلى مكة يصوم ويصومون، حتى بلغ الكديد وهو ماء بين عسفان وقديد، فأفطر وأفطر المسلمون معه، فلم يصوموا من بقية رمضان شيئاً»[3] طوال مدة سفرهم.

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه الإمام أحمد ١-٢٦٦ حدثني الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن عبد الله بن عباس وهذا السند صحيح مر معنا تحت عنوان فتح مكة.

(٢) انظر معجم البلدان ٤-٦٣.

(٣) سنده صحيح رواه عبد الرزاق ٥-٣٧٣ عن معمر عن الزهري فأخبرني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس ومعمر ثقة ثبت التقريب ٥٤١ والبقية كالحديث السابق.

إذاً فقد «نزل مر الظهران في عشـــرة آلاف من المســـلمين فسبعت سليم، وألفت مزينة، وفي كل القبائل عدد وإســـلام، وأوعب مع رســـول الله ﷺ المهاجرون والأنصار فلـــم يتخلف عنه منهـــم أحد، وقد عميت الأخبار على قريش فلا يأتيهم خبر رســـول الله ﷺ، ولا يدرون ما هو صانع»[1] لكن بعض فرســـان قريش يشـــعرون بسكون يسبق إعصاراً مدمراً.. يشـــعرون بسكون مخيف مقلق، وتحركات يجهلون هدفها بعد جريمة ارتكبها بعضهم.. تســـتحق انتقاماً فظيعاً مجهـــول التاريخ. كان ليل مكة مخيفاً، وكأن الجـــن تطل عليها مـــن رؤوس جبالها، وكأن تلك النجوم بريـــق عيون غيلان ووحوش. لـــم يطق بعضهم هذا الجو الخانـــق، فهرب يبحث عن محمد الذي لا ينضب عفوه ولا تنقطع أمطار تسامحه.

أبو سفيان يهرب من مكة المختنقة

إلـــى أجـــواء أكثر رحابة، لكنه ليس أبا ســـفيان بن حرب والـــد معاوية وزوج هند بنت عتبة وصهر رســـول الله. إنه (أبو ســـفيان بن الحارث) وهو ابن ابن عم النبي ﷺ (الحـــارث بن عبد المطلب) وقد أخذ معـــه ابناً له صغير، كما خرج معه أيضاً ابن عمة للنبي ﷺ اســـمه (عبد الله بن أبي أمية بـــن المغيرة) وخرج آخرون يبحثون في الأرض عن شيء يريح هذه الأنفس والأرواح المتعبة، وكأن حجارة ستهوي عليهم من السماء، أو بركاناً سينفجر من تحت أقدامهم، وذلك عندما «نزل رسول الله ﷺ بمر الظهران وقد عميت الأخبار عن قريش فلم يأتهم عن رســـول الله ﷺ خبر ولا يدرون ما هو فاعل. خرج في تلك الليلة أبو ســـفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء يتحسسون، وينتظرون هل يجدون خبراً أو يسمعون به. وقد كان العباس بن عبد المطلب أتى رسول الله ﷺ ببعض الطريق، وقد كان أبو ســـفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعبد الله بن أمية بن المغيرة قد لقيا رســـول الله ﷺ فيما بين مكة والمدينة، فالتمسا الدخول عليه. فكلمت أم سلمة فيهما فقالت: يا رسول الله ابن عمك وابن عمتك وصهرك؟

قال: لا حاجة لي بهما.. أما ابن عمي فهتك عرضي، وأما ابن عمتي وصهري فهو الذي قال لي بمكة ما قال.

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه الحاكم ٣-٤٦ وهو السند السابق.

فلما أخرج إليهما بذلك ومع أبي سفيان ابن له، فقال: والله ليأذنن لي، أو لآخذن بيد ابني هذا ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً.

فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ رق لهما ثم أذن لهما فدخلا وأسلما»[1] وعفا عنهما ﷺ تلك القائمة الطويلة من الجرائم بحقه، فكان ذلك العفو جمراً قذفه ﷺ في مجمرة بين أضلع أبي سفيان بن الحارث، فتعالى الشعر من صدره ذكريات وزفرات ومشاعر حركت مشاعر النبي ﷺ فقام بحركة تنضح بالعتاب على ابن عمه وقسوته معه، وهو الذي لم يؤذه يوماً ولم يؤذ مشاعره.

«أنشده أبو سفيان قوله في إسلامه، واعتذاره مما كان مضى فيه فقال:

لعمرك أني يوم أحمل راية ... لتغلب خيل اللات خيل محمد

لكالمدلج الحيران أظلم ليلة ... فهذا أوان الحق أهدي واهتدي

فقل لثقيف لا أريد قتالكم ... وقل لثقيف تلك عندي فأوعدي

هداني هاد غير نفسي ودلني ... إلى الله من طردت كل مطرد»[2]

«فلما أنشد رسول الله ﷺ (إلى الله من طردت كل مطرد) ضرب رسول الله ﷺ في صدره، فقال: أنت طردتني كل مطرد»[3]

ضربة العتاب تلك جعلت صدره ينزف المزيد من المشاعر والشعر، ففاض أبو سفيان ندماً وحزناً وقال:

«أفر سريعاً جاهداً عن محمد ... وأدعى ولو لم أنتسب لمحمد

هم عصبة من لم يقل بهواهم ... وإن كان ذا رأي يلم ويفند

أريد لأرضيهم ولست بلافظ ... مع القوم ما لم أهد في كل مقعد

فما كنت في الجيش الذي نال عامرا ... ولا كل عن خير لساني ولا يدي

---

(١) سند صحيح وهو حديث ابن عباس السابق وهذا لفظ الطبراني ٨-١٠.

(٢) سنده صحيح وهو سند الحديث السابق لكن اللفظ هنا للحاكم.

(٣) سنده صحيح وهو سند الحديث السابق لكن اللفظ هنا للحاكم.

قبائل جاءت من بلاد بعيدة ... توابع جاءت من سهام وسردد

وإن الذي أخرجتم وشتمتم ... سيسعى لكم سعي امرئ غير قعدد» [1]

لم يكن الشعر وحده هناك..

الطفولة أيضاً في طريق النبي ﷺ

لئن كانت الطفولة أحد الأشياء التي يستسلم قلب النبي ﷺ لها، فإن الحديث عنها وعن براءتها يذهب عناء الطريق إلى مكة. فعلى ذلك الطريق كانت القبائل العربية تتوجس حدثاً يرفعها، أو يحطها.. كان التساؤل ممتداً على طول الطريق يرصفه حيناً، ويثير غباره أحياناً، وكان على الطريق طفل عذب كالمطر.. شغوف كعينيه البريئتين يبلغ السادسة من عمره اسمه (عمرو بن سلمة) يشده مرأى المسافرين ما بين مكة والمدينة، لكن توقد ذهنه وحافظته لا يقنع بالدهشة والتأمل كقومه.. كان يستدعي المزيد، ويحفظ الآيات بشكل ملفت، ويبدو أن ثوبه القصير جداً والوحيد يتيح له المزيد من خفة الحركة، والانطلاق لطرح الأسئلة البريئة على القوافل والمسافرين، أما والده فكان سفير قومه للمسير خلف جيش الإسلام المتوجه نحو مكان مجهول.

يقول هذا الطفل عن نفسه وعن قومه وعن عرب الجزيرة: «كنا بماء ممر الناس، وكان يمر بنا الركبان فنسألهم: ما للناس.. ما للناس.. ما هذا الرجل؟فيقولون: يزعم أن الله أرسله أوحى إليه، أو أوحى الله بكذا.

فكنت أحفظ ذلك الكلام وكأنما يقر في صدري، وكانت العرب تلوم[2] بإسلامهم الفتح، فيقولون: اتركوه وقومه، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق. فلما كانت وقعة أهل الفتح بادر كل قوم بإسلامهم، وبدر أبي قومي بإسلامهم»[3] أي ذهب قبل قومه للاستفسار عما يجري.

---

(١) سنده صحيح وهو سند الحديث السابق لكن اللفظ هنا للحاكم.

(٢) يعني ينتظرون.

(٣) صحيح البخاري ٤-١٥٦٤.

ماذا عن العباس بن عبد المطلب

لقد خرج رضي الله عنه، وقد أخرجه من مكة خوفه على تاريخ قريش ومستقبلها، ولعلـه بقي كل هـذه المدة يخفي إيمانه للإبقاء على مكانة أهل بيت النبي ﷺ وسـط قبيلة قريش، فهو آخر من تبقى من أبناء عبد المطلب العشرة، ولا يمكن أن يفرط بتلك المكانة لعبدة الأصنام من حوله فقط، فخرج العباس بن عبد المطلب خائفاً على مدينته وقبيلته من تهور تدفع ثمنه غالياً وغالياً جداً.

هاهو العبـاس يتحدث عن تلك اللحظات التي تحبـس الأنفاس، وتزهق الأرواح وذلك «لما نزل رسـول الله ﷺ بمر الظهـران، قال العباس: واصباح قريش.. والله لئن دخل رسول الله ﷺ مكة عنوة قبل أن يستأمنوه، إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر.

قال (العباس): فجلسـت على بغلة رسول الله ﷺ البيضاء، فخرجت عليها حتى جئـت الأراك، فقلت: لَعَلِّي ألقى بعض الحطابة أو صاحب لبن، أو ذا حاجة يأتي مكة فيخبرهم بمكان رسول الله ﷺ ليخرجوا إليه، فيستأمنوه قبل أن يدخلها عليهم عنوة. فوالله إني لأسـير عليها وألتمس ما خرجت له، إذ سـمعت كلام أبي سفيان وبديل بن ورقاء وهما يتراجعان، وأبو سفيان يقول: ما رأيت كاليوم قط نيراناً ولا عسكراً!!

يقول بديل: هذه والله نيران خزاعة حمشتها الحرب.

يقول أبو سفيان: خزاعة والله أذل وألأم من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها.

قـال (العباس): فعرفت صوته فقلـت: يا أبا حنظلة. فعـرف صوتي، فقال: أبو الفضل؟ فقلت: نعم. قال: ما لك فداك أبي وأمي؟ فقلت: ويحك يا أبا سـفيان.. هذا رسول الله ﷺ في الناس، وا صباح قريش والله.

قـال: فما الحيلـة فداك أبي وأمي؟ قلـت: والله لئن ظفر بـك ليضربن عنقك، فاركب معي هذه البغلة حتى آتي بك رسـول الله ﷺ أستأمنه لك، فركب خلفي ورجع صاحباه»[1] إلى مكة.

أمـا العباس فكان خائفاً على صديقه أبي سـفيان، وكان خوفه في موضعه، فقد رآه عمر بن الخطاب ففرح فرحاً شـديداً بتمكنه منه، لكنه لا يسـتطيع أن يقدم على

(١) سنده صحيح وتخريجه في نهايته.

مس هذا التاريخ الطويل من الأذى والحرب على الله ونبيه إلا بإذن من رسول الله ﷺ. لذلك ركض نحوه طالباً الإذن بتصفية أبي سفيان فلن يجد فرصة كهذه.

عمر يريد قتل أبي سفيان بن حرب

والعباس يريد إنقاذه، ويقول: «فحركت به كلما مررت بنار من نيران المسلمين قالوا: من هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله ﷺ قالوا: عم رسول الله ﷺ على بغلته، حتى مررت بنار عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: من هذا؟ وقام إليّ.

فلما رأى أبا سفيان على عجز البغلة قال: أبو سفيان عدو الله، الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد. ثم خرج يشتد نحو رسول الله ﷺ، وركضت البغلة فسبقته بما تسبق الدابة البطيء الرجل البطيء، فاقتحمت عن البغلة، فدخلت على رسول الله ﷺ، ودخل عمر فقال: يا رسول الله.. هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد، فدعني فلأضرب عنقه. قلت يا رسول الله: إني أجرته.

ثم جلست إلى رسول الله ﷺ فأخذت برأسه، فقلت: لا والله لا يناجيه الليلة رجل دوني.

فلما أكثر عمر في شأنه قلت: مهلاً يا عمر.. أما والله لو كان من رجال بني عدي بن كعب ما قلت هذا، ولكنك عرفت أنه رجل من رجال بني عبد مناف!

قال: مهلاً يا عباس، فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلي من إسلام الخطاب لو أسلم، وما بي إلا أني قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب.

فقال رسول الله ﷺ: اذهب به إلى رحلك يا عباس، فإذا أصبح فائتني به.

فذهبت به إلى رحلي، فبات عندي، فلما أصبح غدوت به إلى رسول الله ﷺ، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله.

قال: بأبي أنت وأمي ما أكرمك وأوصلك، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله غيره لقد أغنى عني شيئاً.

قال: ويحك يا أبا سفيان.. ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟ قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك.. هذه والله كان في نفسي منها شيء حتى الآن»[1]

---

(١) تخريجه في نهايته.

كان العناد والزعامة والأوهام المتكلسة تغلق قلبه عن الحقيقة، لكن حد السيف جعله يتخلص منها، لأن السيف سيبيده معها كما أباد أبا جهل على أرض بدر، ثم نسي الناس من يكون أبو جهل، ونسوا زعامته وبقي محمد ومن معه، لذلك تم:

إسلام أبي سفيان

وذلك عندما «قال العباس: ويحك يا أبا سفيان أسلم وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله قبل أن تضرب عنقك، فشهد بشهادة الحق وأسلم.

قلت: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر فاجعل له شيئاً قال: نعم من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن»[1]

لكن النبي ﷺ لم يكن يتمنى إيماناً كإيمان ابن سلول، فأبو سفيان زعيم، وإيمان هذا الصنف من الناس لا يمكن أن يتم إلا إذا واجهته بعاصفة من الحقائق يستحيل بقاؤه معها، وقد أحب ﷺ أن يقدم لأبي سفيان برهان ما قاله هرقل زعيم الروم أمواجاً تتلاطم على وجه الأرض، وتغرق الأصنام ومن يعبدها. لذا قام ﷺ بتقسيم جيشه إلى أربع كتائب أو أقسام:

كتيبة تمثل جناحاً أيمن يقودها الزبير رضي الله عنه

وكتيبة أخرى تمثل جناحاً أيسر ويقودها خالد بن الوليد رضي الله عنه.

وقسم يقوده أبو عبيدة وهم الحسر الذين لا يملكون دروعاً ويبدوا أنهم في المؤخرة.

وقسم يقوده النبي ﷺ وهو قلب الجيش وأكثره، وهو عبارة عن معظم القبائل العربية.

وفرقة مدرعة ضخمة لقبت بالخضراء، لشدة سوادها من كثرة الدروع، وهي مكونة من المهاجرين والأنصار..

أما قريش فقد جمعت لها جيشاً من المرتزقة.. من بعض أفراد القبائل في محاولة كالمقامرة، بحيث إذا ما تمت المعجزة وانتصروا.. شاركوهم في الغنائم، وإن انهزموا فاوضوا المسلمين. لكن النبي ﷺ كان أكثر حزماً هذه المرة، فقد قرر حصد كل

---

(١) حديث صحيح تخريجه عند نهايته.

من يقاوم من تلك القوات المرتزقة أو من غيرهم، وخص الأنصار وحدهم دون غيرهم بتنفيذ هذه المهمة. هذا الحصد هو ما بقي من خيارات استنفذتها قريش كلها.

أبو هريرة رضي الله عنه كلف بمهمة تجميع الأنصار.. ها هو يقول: «أقبل رسول الله ﷺ فدخل مكة، فبعث الزبير على أحد الجنبتين، وبعث خالد بن الوليد على اليسرى، وبعث أبا عبيدة على الحسر فأخذوا الوادي، ورسول الله ﷺ في كتيبته، وقد بعثت قريش أوباشاً لها وأتباعاً لها فقالوا: نقدم هؤلاء فإن كان لهم شيء كنا معهم، وإن أصيبوا أعطينا ما سألوا.

فنظر رسول الله ﷺ فرآني فقال: يا أبا هريرة.. اهتف بالأنصار، فلا يأتيني إلا أنصاري.

فهتف بهم: يا معشر الأنصار أجيبوا رسول الله ﷺ.

فجاؤوا كأنما كانوا على ميعاد، ثم قال: اسلكوا هذه الطريق، ولا يشرفن لكم أحد إلا أنمتموه[1]. فجاؤوا فأحاطوا برسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: أما ترون إلى أوباش قريش وأتباعهم، وضرب بيده اليمنى مما يلي الخنصر وسط اليسرى وقال: احصدوهم حصداً حتى توافوني بالصفا. قال أبو هريرة: فانطلقنا، فما يشاء أحد منا أن يقتل من شاء منهم إلا قتله، وما يوجه أحد منهم إلينا شيئاً»[2]

أما النبي ﷺ فقد أمر عمه العباس أن يأخذ زعيم قريش أبا سفيان إلى مكان، ليطل على ممر الجيش كله فيرى بعينيه قوات المسلمين، ويتأكد بنفسه من عدم جدوى المقاومة، والأهم.. حتى يتطاير ما تبقي لديه من شك في صدق محمد ونبوته.

يقول العباس مكملاً قصته: «قال رسول الله ﷺ: يا عباس احبسه بمضيق الوادي.. عند خطم الجبل، حتى تمر به جنود الله فيراها.

فخرجت به حتى حبسته حيث أمرني رسول الله ﷺ أن أحبسه، ومرت به القبائل على راياتها.. كلما مرت قبيلة قال: من هؤلاء؟ فأقول: سليم. فيقول: ما لي ولسليم.

---

(١) أي من قاومكم فاقضوا عليه.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم ٣-١٤٠٥ وابن حبان ١١-٧٤ والبيهقي ٩-١١٧ وابن أبي شيبة ٧-٣٩٧ وغيرهم واللفظ لابن حبان والزيادة للدارقطني والحاكم ٢-٦٢ من طريق سلام بن مسكين عن ثابت عن عبد الله ابن رباح عن أبي هريرة وهي زيادة صحيحة.

ثـم تمـر القبيلة قال: من هؤلاء؟ فأقـول: مزينة. فيقول: ما لـي ولمزينة؟ حتى تعدت القبائل لا تمر قبيلة إلا قال: من هؤلاء؟ فأقول: بنو فلان. فيقول: ما لي ولبني فلان؟ حتى»[1]... حتى ماذا؟

كان أبو سـفيان ينتظر مرور النبي ﷺ محاطاً بالمهاجرين والأنصار، لأنه لا يزال يـرى أن تلـك القبائل ما هي إلا عبيد لمن غلب، وهـو يريد رؤية هذا الذي غلب، وهل بالإمكان مقاومته؟ بقي أبو سفيان متحرقاً حتى مر به سيل أسود كالموت.

النبي يمر أمام أبي سفيان

«مر رسول الله ﷺ في الخضراء، كتيبة فيها المهاجرون والأنصار لا يرى منها إلا الحدق، قال: سبحان الله من هؤلاء يا عباس؟

قلت: هذا رسـول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار. قال: ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة، والله يا أبا الفضل.. لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً.

قلت: يا أبا سفيان إنها النبوة. قال: فنعم إذن»[2]

إلى هذه اللحظات الحاسمة وأبو سفيان لا يزال يصر على أن الأمر زعامة وملك، وقـد أعمى العنـاد بصيرته كما هي حال الكثير من أمثال أبي سـفيان، ممن يحملون أفكاراً معادية الإسـلام.. إذا رأوا انتصار الإسلام ومده ينتشر كالطوفان، ويجرف ما تبنوه من أفكار متهالكة.. برروا انتشـاره وانتصاره بكل شـيء، إلا الاعتراف بأنه حق، ولا يمكن أن يسلم أمثال هؤلاء إلا إذا رأوا حكم الإسلام واقعاً مطبقاً، وقوة تحطم تلك الأكـداس والكثافة الغليظة من العناد، والتي لا يمكـن معها أن يصبح الفرد إلا معيقاً لكل إبداع، وفي الوقت الذي كان فيه أبو سفيان متحسراً على مجد وثني.. ينهار أمام عينيـه.. كان أول الناس إسـلاماً أبو بكر الصديق رضي الله عنه أسـعد الناس بهذا النصر العظيم، الذي شـارك في كل لحظة مـن لحظاته، وفي كل خطوة من خطواته، وها هو اليوم يحوم على الخيل يرتبها، وينظمها، ويشرف على تحركاتها.

---

(١) سـنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه الطبراني ٨-٩ حدثني الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس وقد مر معنا تحت عنوان فتح مكة.

(٢) سنده صحيح وهو الطريق السابق وقد تابع ابن إسحاق جعفر بن برقان.

لكن شيئاً ما يكدر صفو هذا النصر على أبي بكر.. ذلك هو والده الشيخ الطاعن في السن والعمى والشرك.. فأين هو الآن؟

أين والد الصديق

في الوقت الذي كلف النبي ﷺ أبا بكر بالإشـــراف على الخيل.. كان والده يرقبه مـــن بعيد رغم أنه أعمى، وبصحبته طفلة هي أصغـــر أخوات أبي بكر الصديق وذلك «لما وقف رسول الله ﷺ بذي طوى قال أبو قحافة لأصغر بناته: أظهريني على الجبل. وكان يومئذ أعمى.

قالت: فأشرفت به عليه، فقال: ما ترين؟ فقالت: سواداً مجتمعاً. فقال: تلك والله الخيل. قالت: وأرى بين يدي ذلك السواد رجلاً يسعى مقبلاً ومدبراً. فقال: ذاك الوازع -يعنـــي الذي يأمـــر الخيل ويتقدم إليها- وكان الوازع يومئذ أبـــو بكر ابن أبي قحافة. فقالت: وأرى أن ذلك السواد قد انتشر. فقال: قد والله دفعت الخيل فأسرعي.

فانحدرت به من الجبل وتلقته الخيل قبل أن يصل إلى بيته، وكان في عنق الجارية طوقاً لها من ورق، فمر عليها رجل فاقتطعه منها»[1] وذهب العقد ولكن هناك ما هو أهم من العقد بالنســـبة للعباس ابن عبد المطلب.. هناك قريش وأهل مكة، لكن يبدو أن أبا سفيان لا يزال مشدوهاً.. مأخوذ العقل بما يجري على ساحة كانت قبل ساعات ساحة يظللهـــا نفوذه، وتخضع لكلمته، وها هو اليوم لا يملك نفوذاً ولا كلمة. فأراد العباس أن يوقظه مما هو فيه من أوهام، فالخيل إلى مكة ومن عليها أكثر شوقاً ولهفة.

يقـــول العباس رضـــي الله عنه: «قلت النجاء إلى قومـــك. فخرج حتى إذا جاءهم صرخ بأعلى صوته: يا معشـــر قريش.. هذا محمد قد جاءكم بما لا قبَلَ لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن.

فقامت إليه امرأته هند بنت عتبة، فأخذت بشاربه فقالت: اقتلوا الدسم الأحمس فبئس من طليعة قوم.

---

(١) ســـنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه ابن راهويه ١-١٣٢ والطبرني ٢٤-٨٨ وأحمد ٦-٣٤٩ حدثني يحيى بن عباد عن أبيه عن أسماء بنت أبي بكر وقد مر معنا .